## الرسالة الأولى

# قراءة الكلمة تمكن من قراءة العالم

إن أنسب عنوان لموضوع الرسالة الأولى التى أوجهها إلى أولئك الذين يتجاسرون على اتخاذ التدريس مهنــة لهم ، هو " المغزى الناقد للتدريس والتعلم " إذ إن التدريس لا وجود له بغير علم ، وأعنى بذلك أكثر مما تتطلبه عملية التدريس والتعــلم التى يقوم بها المدرســون فى الواقع . وما أعنيــه من هاتين العمليتين " التدريس " و " الــتعلم " لا يتحققان ، إلا إذا كان المدرسون على درجة عالية من الوعى المسبق بالمحتوى الذى سيقومون بتدريسه ، وعندهم المقدرة على ملاحظة كيف تعمل قابليات التعلم وحب الاستطلاع ، التى جبل عليها الإنســان عند الدارسين المبتدئين ، وذلك شــرط لازم لكى يفهمــوا فهماً واعياً ما يدرس لهم ، وبالتالى يســاعدون أنفسهم على كشــف ما غمض عليهم من أمور ، والتمييز بين ما هو حق ، وما هو باطل ، بين مــا هــو صواب ، وما هو خطأ .

ولن يتأتى لهؤلاء المدرسين أن يكونوا كذلك من خلال تعلمهم من أخطائهم فى أثناء التدريس فحسب ، وإنما كذلك من خلال ملاحظة مدى تمتعهم بالتواضع والمرونة الذهنية ، وقدرتهم على مراجعة مواقفهم الفكرية ؛ لأن تعلمهم الحقيقــى يكمــن فى بحثهم عن الطريقة التى تجعلهم متوحدين مع حب استطلاع تلاميذهم ، وما يتوقون إلى معرفته ، وآخذين بأيديهم إلى السبل والمسارات المؤدية إلى ذلك . إن بعــض ســبل ومسارات حب استطلاع التلاميذ غالباً ما تكون بكراً ، ولكنــها حبلــى بالأفكــار والتساؤلات التى لم تخطر على بال مدرسيهم من قبل ... إلا أن الملاحظ على المدرسين أنهم لا يفعلون ذلك ، وإنما هم موظفون يؤدون عملاً روتينياً جامداً هدفه ملء أذهان التلاميذ، وليس تكوين وإثراء خطوات حب الاستطلاع عندهم، وتنميــة حــساسيتهم

ووعيهم ، وقدرتهم على الاكتشاف . ولن يستطيع المدرسون فعل ذلك إلا بقربهم من أفكار وتخمينات وطهارة وحصانة تلاميذهم . وعندئذ يكون أداء المدرسين فرصة ثرية للتعلم فى أثناء تدريسهم . ومن هنا فمن الضرورى أنً يتعلم المدرســون أولاً كيــف يدرسون لا كما يدرسون موضوعاً معيناً ، ويعيدون تعليمه كما هو فى كل مــرة ، أو كما تعلموه فى كليات إعداد المعلمين .

والحقيقة أن المعلمين قد تعلموا كيف يدرسون محتوى معرفيًّا بعينه ، وهذا لا يعنى أنهم يستطيعون تعليم شيء لم يتعلموه . كذلك لا يجب أن يعنى - على أى حال - أنه يؤهلهم ليغامروا فى الدخول إلى مهنة التدريس دون أن يمتلكوا الكفايات الضرورية التى أشرنا إليها منذ قليل مسئولية ليست فنية فقط، وإنما هى مسئولية سياســية وأخلاقيــة ومهنية تضع المدرسين المشتغلين به أمام التزام بإعداد أنفسهم وتطويعها لتحمل هــذه المسئولية وأدائها فى واقعهم التدريسى اليومى المعيش ، إن التدريس ليتطلــب إعــداد وتنمية مهنية دائمة ، ومن خلال الخبرة والفهم الواعى لها ، والمبنى على التحليل الناقد لهذه الخبرة ، لتطويرها وإثرائها دائماً .

دعنا نبدأ بتعلم كيف نجلى حقيقة خبرة أولئك الذين أعدوا لمهنة التدريس الــتى تتضمن بالضرورة "الاطلاع" . وليكن واضحاً أننى لست مهتماً هنا بوصف القواعــد التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار أو تتبع ، وإنما على العكس من ذلك ، فأنا مهــتم بمــا يتفق وروح هذا الكتاب ، الذى يدور حول نقاط وأبعاد تعليمية معينة ، مشيراً إلى أننا فى حاجة إلى شيء ما مختلف ، وعلينا أن نفعله فى التربية يوماً بعد يوم ، ســواء كنــا متعلمين أو مدرسين .

إننى لا أحب أن أعطى انطباعاً إننى أبحث عن الاستجلاء المطلق لقضايا "الدراسة" و " القراءة " و " الملاحظة " و " التعرف " وعلاقتها بالأشياء والموضــوعات لمجــرد معرفتها ، وإنما سأحاول أن أوضح بعض النقاط الجديرة بإثارة انتباهنا لمزيد من الفهم الناقد لكل هذه القضايا ، والتى أرى إنها عمليات .

ودعنا نبدأ بعملية " الدراسة " التى تتضمن ما يقوم به المدرس مــن تــدريس ، والتعلم السابق والمصاحب لهذه العملية ، وتعلم الطــلاب المعلمــين الــذين يعــدون كمدرسين فى المستقبل ، أو أولئك المدرسين الذين يجــددون فى معــارفهم ليكــون تدريسهم الحالى أفضل مما هو عليه ، أو التعلم الذى يحدث عند أولئك التلاميذ الصغار، الذين يجدون أنفسهم فى المراحل الأولى من تمدرسهم .

إن إعداد الفرد للتعلم ، والدراسة هو- قبل أى شيء - نشاط ناقد مبدع متجدد، ولا يهم إن كان تعلم المرء يتم من خلال قراءته نصاً يناقش محتوى مقدماً عن طريــق مدرسة ، أو من خلال تفكير ناقد يمارسه المرء فى قضية اجتماعية أو طبيعية ؛ لأن هذا الإعداد سيؤدى إلى أن يتمكن المرء من قراءة أى نص يقدمه المرء ، من خلال خبرتــه الذهنية الخاصة به ، أو من خبرات غيره من الناس قراءة واعية .

ومن المنظور الناقد ، فإن المرء الذى لا يصطنع ثنائية بين المعرفة المرسلة البديهية أو " الحس العام " والمعرفة الأكثر تنظيماً رصانة ، نجده يفضل البحث عن تركيب وتآلف المتضادات ، مع أن الدراسة تتضمن القراءة، حتى وإن لم تختزل فى الأخيرة . إن قــراءة الكلمة قراءة واعية تمكننا من مراجعة قراءتنا السابقة للعالم ، ولكن القراءة ليست متعة خالصة ، ولا فعلاً ميكانيكيًّا لاسترجاع وتذكر أجزاء من النص .

وإذا كنت أمارس الدراسة الحقة ، وأقرأ قراءة جادة .. فإننى لا يمكن أن أطــوى صفحة قبل أن أتمكن من فهم معناها فهماً واضحاً . والحل عندى لا يعتمد على مجرد تكرار أجزاء من فقرات من خلال قراءة ميكانيكية مرتين وثلاث مرات، وأربع مرات، مغلقاً عينى ومحاولاً ترديدها ، معتقداً أن هذه القراءة ستمدنى بالمعرفة التى أحتاجها .

إن القراءة لا تعنى ذلك الأداء ، وإنما هى عملية ذهنية صعبة ولكنها ممتعة .

ولا يمكن لإنســان أن يدرس دراســة حقيقية أصيلة ، إذا لم يتخــذ مــن النقــد سبيلاً وسيلة فى دراســته أو قراءته التى هى فى نهاية المطــاف قراءة ودراسة كاشــفة أو مستكشفة ، ذلك أن القراءة بهذه الكيفية ما هى إلا عملية بحث إبداعى ، وفهم واع لمــا

نقرأ ، وهكذا يصبح التدريس الصحيح للقراءة والكتابة من النقاط الأساسية ذات الأهميــة القصوى ؛ لأنه ليس مجرد تعليم القراءة التى نعهدها ، بل إنه خبرة إبداعية حــول الفهــم والتواصل الشامل . ونكتسب خبرة الفهم هذه كل العمق إذا استطعنا أن نجمع المفهومات ، التى تنبثق من الخبرة المدرسية ، وتلك الناتجة من حركة الحياة اليومية مع بعضها الــبعض بدلاً من تفتيتها وتجزيئها . ويتطلب المران الناقد فى القراءة والكتابة أيضاً التحرك السهل إلى التعميم والتجريد محسوساً ومعايناً فى الممارسة . ومن إحدى الطرق التى يمكننا أن ننجز بها هذا المران النقاد فى أثناء الممارسة ، هى تلك التى أشرت إليها بــ "قراءة العالم" ، التى أعنى بها هنا الفهم الشامل لما يحدث فى حياتنا اليومية ، كما تعنى " قراءة العالم " أيــضاً ذلــك الأداء البحثى لما يتضمنه النص أو الكتاب ؛ بحيث يقودنا هذا إلى قراءة العالم وفهــم مــا ينطوى عليه من موضوعات وقضايا . ويجب على أن أكون واضحاً أكثر فأقول : إن قراءة العالم المبنية على الخبرة الحسية ليست وحدها بكافية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، لا يجب أن ترفض أو تهمل باعتبارها حدًّا أدى إلى قراءة ما انتقل إلى العالم المحسوس مــن مفهومات ، مجردة من خلال عملية التعميم التى ذكرناها سابقاً .

لقد ناقَشتْ إحدى طالبات محو الأمية فى حلقتها الثقافية ، رجلاً أبدع "فــازة" فخارية فى منطقة الشمال الشرقى ، تضمنت المناقشة قراءة لسلسلة من المفهومات ... ، هى فى حقيقة الأمر ليست إلا تمثيلاً للواقع المحسوس الذى هو الثقافة .

وظهر مفهوم الثقافة من خلال جهود الجماعة أو الحلقة الثقافية فى سبيل " الفهم الشامل " الذى حدد ملامح قراءة الكلمة أو " العالم " .. لقد أفضت الذاكرة الخبريــة السابقة للمرأة ، وكذلك فهمها الحسى للعملية التى أبدع بها صانع الفازة الفخاريــة ، أفضت إلى أن تشكيل هذه الفازة الفنى كان نوعاً من نتاج العمل الحيوى ، الذى يجعل الحياة له ولأسرته ممكنة .

وإذا تجاوزنا الخبرة الحسية إلى ما وراءها ، فسنجد المرأة طالبة الأمية المشار إليهــا قد خطت خطوة أساسية ؛ بحيث وصلت إلى القدرة على التعميم التى شكلها : "خبرتها

المدرسية" إن إبداع فازة من الفخار حول عمل الخزاف هذا هو وسيلة للبقـاء ، وفى الوقت نفسه إبداع فنى وثقافى . ولهذا السبب ، ومن خلال استدعائها قراءتها الـسابقة للعالم ، جعلت مبدع الفازة يصيح بكل الفخر والاطمئنان قائلاً " لقد أبدعت ثقافة ، إننى صنعت هذه " .

ولقد أتيحت لى فرصة مشاهدة خبرة مماثلة للخبرة السابق ذكرها من منظور ذكاء سلوك الناس وكثيراً ما أشرت إليها فى كتاباتى السابقة ، ولكن لا بأس من ذكرها مرة ثانية هنا .

لقد وجدت نفسى جزيرة "ساو تومي" فى خليج غينيا بالساحل الغربى الإفريقى ، وكنت بصحبة مربين محليين فى أول برنامج لتنميتهم كمعلمين لمحو أمية الكبار .

وقد اختارت اللجنة الوطنية قرية : "بورتومونت" ، وهى قرية صيادين، لتكـون مركزاً ذلك النشاطات البرنامج التدريبى . واقترحت على المتدربين المحليين أن البرنامج سوف لا يتبع طرائق تقليدية ، معينة كتلك التى تفصل النظرية عن التطبيق ، كما أننـا لن نرتبط بأى نوع من العمل أو النشاط يفصل أساساً بين النظرية والتطبيق ، سـواء بالتقليل من أهمية النظرية ، أو بإنكار أهميتها ، أو عن طريق مجرد التركيز المكثف على الجانب التطبيقى باعتباره الشيء الوحيد الذى يوضع فى الحسبان ، أو بتفويض دعـائم التطبيق بتسليط الضوء بشكل مكثف أيضاً على النظرية . وعلى النقيض من ذلـك ، كان فى نيتى منذ البداية ، أن أقوم بتجربة مباشرة للتناقضات القائمـة بـين النظريـة والممارسة ، والتى ستكون موضوعاً للتحليل فى إحدى رسائلى .

لقد رفضت لهذا السبب جدولاً يختزل بداية البرنامج لما فيما يطلق عليه عـرض محتوى نظرى أساسى لتنمية وتدريب معلمى الكبار فى المـستقبل . ويعـنى هـذا فى الأساس أن تحجز المواعيد للمتحدثين ، الذين يعتبرون أكثر قدرة من غيرهم فى هـذا المجال قبل غيرهم من الناس .

كنت أفكر فى نشاطات متتابعة .. فيمكننا أن نناقش فى الصباح بعض المفهومات المفتاحية على سبيل التقديم مثل التصنيف والتحليل والرؤية ، ولكن بطريقـــة كافيـــة ومتقنة لا نحتاج بعدها لتقديم آخر لهذه المفهومات ، إذ إن ما هو مطلوب وملح كـــان يتمركز فى مناقشة ناقدة للممارسة ، ينخرط فى أدائها المربون والمعلمون .

وهكذا ، مع تلك الفكرة الأساسية التى قبلت ، ووضعت موضع التنفيذ ، فـــإن معلمى المستقبل كان عليهم أن يقوموا بتنسيق مناقشة حول موضع التنظيم فى حلقـــة ثقافية ، مكونة من خمسة وعشرين مشاركاً ، مدركين أن النشـــاط موجه إلى التنمية المهنية لمعلمى ومربى الكبار ، وقبل ذلك عقدت لهم مناقشة حول الطبيعـــة الـــسياسية لمهمتهم ، وعرفوا أنهم مقدمون على العمل مع أفراد ناضجين فى عملية قوامها التنميـــة المهنية ، وعرفوا كذلك على أنه لم يسبق لهم ولا للمدرسين الذين سوف يعملون معهم أن فعلوا شيئاً مثل ذلك الذى يسعون إلى فعله . والاختلاف الوحيد الذى يميزهم كان متمثلاً فى أن المشاركين فى الحلقة يمكنهم أن يفروا من العالم ، فى الوقت الذى يكـــون فيه المدرسون الشبان فى أثناء التدريب يقرأون الكلمة جيداً و لم يسبق لهم - على أيـــة حال - أن ناقشوا معهم التصنيفات فى حلقات ثقافية ، أو قاموا بالتـــدريس فى مجـــال القراءة والكتابة للكبار من قبل .

وفى أصيل يوم من أيام البرنامج ، كان يكلف أربعة من المتدربين بالعمل فى جلسة لمدة ساعتين مع خمسة وعشرين مشاركاً ؛ أما هؤلاء المسئولون عن البرنامج ، فيراقبون ويتابعون سير البرنامج ، ويسجلون ملحوظاهم . أما عن النظرية وراء هـــذا النـــشاط الذى يقوم به المتدربون .. فإنها توضح لهم فى برنامج اليوم التالى خلال أربع الساعات المخصصة للتقويم ، والحلقات النقاشية للتنمية ، وحين يتم تناول الأخطـــاء والهنـــات والجوانب الحسنة والسيئة فى آرائهم بحضور كل أعضاء المجموعة ، وبهذه الطريقـــة .. فإن الأخطاء التى تم تحليلها يصعب تكرارها من الجماعة ، وهكذا وتنبثق النظرية مـــن خلال الممارسة الجيدة .

وفى أثناء إحدى جلسات الأصيل هذه ، وكانت المناقشة حول اللوحة المرسوم عليها قرية "بورتو مونت" بيتوها القليلة الممتدة على طول شاطئ الخليج مواجهة للمحيط ، والصياد الذى ينطلق من قاربه ممسكاً سمكة - وإذا باثنين من المشاركين يقفان - كما لو كان قد خططا لذلك ، ويتجهان نحو نافذة المدرسة التى كنا فيها ، ويواجهان اللوحة المرسومة لها مرة ثانية ويقولان : (نعم هذا هو ما تشبهه "بورتومونت" ، ولم نكن نعرفها من قبل على حقيقتها!) ومعنى هذا ألفتهم لسياق قريتهم لم تمكنهم من رؤيتها على ما هى عليه ، ولكن عندما ابتعدوا عن الموضوع بعض الشيء ، استطاعوا أن يقرأوا عالمهم هذا قراءة جديدة ، أوقفتهم على حقيقة قريتهم بدرجة افضل . وهذه القراءة الجديدة أعادت خلق قراءتهم السابقة ، الأمر الذى جعلهم يقولون (نعم هذا هو ما تشبهه "بورتومونت" ، ولم نكن نعرفها من قبل على حقيقتها!) لقد انغمسوا فى حقيقة عالمهم الصغير ، ومن ثم تمكنوا من فهمه والوعى به فهماً ووعياً حقيقيًّا .

إن مفهوم الدراسة إنما يعنى أن تكشف وأن تحرز فهماً دقيقاً للموضوع الذى تدرسه ؛ وأن تتحقق من علاقاته بالموضوعات الأخرى . ويقتضى هذا أن يكون الطلاب قادرين على المغامرة والمخاطرة التى هى لزوم التعلم؛ إذ بغير ذلك لا يستطيعون الإبداع ولا الابتكار .

ولهذا السبب أيضاً ، وكما سبق لى أن ذكر عدة مرات ، إن التدريس ليس عملية نقل للمعرفة من المدرس إلى المتعلم نقلاً ميكانيكيًّا . وهذا ما انتقدته دائماً ، ومازلت انتقده . والدراسة الناقدة مرتبطة بالتدريس الناقد الذى يتطلب بالضرورة طريقة وأسلوباً للفهم الناقد ، والقراءة الواعية للكلمة والعالم، القراءة الواعية للنص وللواقع المعيش .

إن طريقة الفهم الناقد والتحقيق من قراءة الكلمة والعالم لا تعنى تجاهل اللغة البسيطة العادية على اعتبار أنها تكونت من مفهومات تخلقت ونمت يوماً بعد يوم من خلال الخبرة الحياتية المحسوسة . هذا من ناحية ، كما أنها لا تعنى الابتعاد عن مفهوم

"اللغة الصعبة" أو المستحيلة مثل ما يحدث فى المفاهيم المجردة . وهذه الطريقة فى الفهم والقراءة الدقيقة للنص والسياق لا تستبعد تنوع اللغة ولا تراكيب الجمل ، وتـضع فى اعتبارها أن المؤلفين يستخدمون لغة علمية وأكاديمية ، لا ينبغى التـدنى فى تبـسيطها وسهولتها فى محاولتهم جعلها فى متناول القراء من حيث الوضوح والسهولة والبعد عن التعقيد ، والغرابة .

وليس لأحد من القراء الحق فى أن يتخلى عن قراءة نص لأنه صعب ، ولم يفهـم معنى كلمة وردت فيه من مثل كلمة " علم المعرفة Epistemology" ؛ لأن الطـلاب يحتاجون إلى بعض أدوات أساسية تعينهم على القراءة والكتابة الفعالة من مثل القواميس بأنواعها المختلفة كالتى تبحث فى أصل وتاريخ الكلمات ، والتى تركز على تـصريف الأفعال ، وتلك التى تبحث فى الأسماء والصفات ، وتلـك المتخصـصة كالمعـاجم الفلسفية، وتلك التى تبحث فى المترادفات اللفظية وتصنيفها ، ودوائـر المعـارف .. كذلك فإنهم محتاجون إلى قراءات فى نصوص مقارنـة ولمـؤلفين مخـتلفين يعـالجون الموضوعات نفسها ، حيث يكون الاختلاف بينها فى الأساليب والتراكيب اللغوية من حيث سهولتها وصعوبتها . ومثل الطلاب فى احتياجهم لهذه الأدوات مثـل البنـائين الذين لا يستطيعون تشييد بناء سليم إلا إذا توافرت لهم الأدوات المناسبة لذلك .

ولا يعنى استخدام هذه الأدوات أنه مضيعة للوقت كما يفكر بعض الناس ، لأن الوقت الذى يستثمره الطالب فى استعمال المعاجم ودوائر المعـارف فى أثنـاء قـراءة النصوص أو كتابتها سوف يساعده فى إحراز مزيد من التحليل الناقد للموضـوعات . وهذا عنصر أساسى لجعل مهمة القراءة والكتابة ، التى يقوم بها الطالب مهمة ممتعة ولها مردود إيجابى فى تكوينه .

ونحن عندما نقرأ كتبا أو نصوصاً لا نتوقع من كاتبيها ، ولا نطلب منهم أن يؤدوا مهمة الكتابة ليشرحوا لنا كل خطوة ، ويبينوا لنا فى هوامش كل ما غمض علينـا ، حتى نفهم النص المكتوب دون عناء ولا بذل أدنى جهد . ولكن واجبهم أن يكتبوا فى

لغة سهلة ويسيرة ؛ حتى يتمكن القارئ من إحراز الفهم بنفسه ولكن دون إلغاء وظيفة القارئ الأساسية وهى الفهم الناقد لما يقرأ.

إن القارئ لا يفهم ما قرأ أو درس فجأة وفى إيجاز حاد وخارق ، ولكن عمليــة الفهم تتطلب جهداً ذهنيًّا مقصوداً من أولئك الذين يتصدون للقراءة والدراسة الجـــادة والواعية ، مستخدمين فى ذلك الأدوات المناسبة لإنجاز مهمتهم ، ونعنى بهـــا القـــراءة الناقد الواعية ، وهى مهمة تتسم بالتحدى ، وتتطلب صبراً ومثابرة وهى ليست مهمة أولئك المتعجلين المتعجرفين المتعالين ، الذين ينقصهم التواضع فى طلب العلم ، وينقلون ضعفهم إلى المؤلف الذى يلومونه على أن ما كتبه من الصعب دراسته .

ومن الأهمية بمكان أن أوضح هنا ، أن ثمة علاقة بين محتوى الكتـــاب ومـــستوى ذهنية القارئ ؛ أى إن هذه العلاقة تعتمد على الخبرة الذهنية لكل من القارئ والمؤلف لأن فهم ما قراه القارئ مرتبط بهذه العلاقة ارتباطاً وثيقاً . وإذا غاب هذا الارتباط بين كل من القارئ والمؤلف .. فإن المرء لا يمكنه أن يفعل شيئًا مع الآخر ، وكل الجهـــود المبذولة لفهم النص المكتوب لا جدوى منها . وفى مثل هذه الحالات لا يوجد انسجام بين وجهة نظر كل من المؤلف من حيث معالجته للموضوع ، ومقدرة القارئ على فهم اللغة التى تتطلبها معالجة الموضوع . ولذلك يأتى معنى أن الدراسة فى الأســـاس هـــى إعداد للمعرفة ، وأن هذا الإعداد يتطلب من بين ما يتطلب تدريباً على الـــصبر عنـــد الشخص ، الذى ينوى القراءة الناقدة الفاهمة ، وأن يقر فى ذهنه أن إدراك المعرفة لا يتم دفعة واحدة ، وإنما تحتاج نضالاً من أجل جدولة الزمن وتنظيمه للحصول عليها .

إن قضية أهمية استعمال الأدوات والمراجع اللازمة لتحقيق مهمة القراءة والكتابة لتثير ضرورة توفير المعاجم ودوائر المعارف المكلفة فى مكتبات المدارس لكل من التلاميذ والمدرسين باعتبارها حقًّا أساسيًّا يجب توفيره، دون أن يرهقهم ذلك اقتصاديًّا لاقتنائها نظراً للتكلفة الباهظة ، وهذا واجب على المدارس تحقيقه اتساقاً مع حـــق كـــل مـــن التلاميذ والمدرسين فى المعرفة ، وواجبهم فى تحصيلها .

وأود الآن أن أعود إلى شيء عدت إليه قبلاً، ألا وهو العلاقة بين القراءة والكتابة، وهما العمليتان اللتان لا ينبغى أن تفصلا عن بعضهما البعض . ويتعين علينا أن ننظمهما بطريقة تعتبرهما كما لو كانتا سبيلاً إلى خلق نفاذ البصيرة الذى يحتاجــه كــل مــن المدرسين والتلاميذ ، كما أكد ذلك " ليف إس فيجو تسكاى " وهو أن نفاذ البصيرة يحتاج إليه التلاميذ الصغار ، كما نحتاج إليه نحن الكبار .

ومن المعروف مبدئيًّا ، أن التعبير الشفهى يسبق التعبير الكتابى عنــد الإنــسان ، ولكن التعبير الكتابى يتضمن التعبير عندما يصير الناس قادرين على التعبير عن أنــسهم من خلال الرموز أو الحروف ، سواء تحدثوا عن أحلامهم ، ومخــاوفهم ، وخـــبراقم الاجتماعية ، وآمالهم ، وممارساقم .

وعندما نتعلم كيف " نقرأ " فإنما نمارس قراءة ما يكتبه الآخرون، الــذين ســبقونا فى الكيفية التى تعلموا بها كيف يقرأون ويكتبون ، وأتقنوا ذلك فأنتجوا لنا ما نقرأه لهم . وكما أننا نتعلم كيف نقرأ ، فإننا نعد فى الوقت ذاته لنكتب ما نتكلمه فى حياتنا الاجتماعية .

ولقد استقر عند علماء التربية أن الإنسان فى المجتمعات ذات الثقافة المكتوبة مــن الصعب ، بل من المستحيل عليه أن يدرس ، وأن يبحث عن المعرفــة ، وأن يــستكنه حقيقة الأشياء المحيطة به ، وأن يعرف معرفة ناقدة أسباب وجود الأشياء وكينونتها .

ومن الأخطاء التى نقع فيها غالباً أن نفصل بين ما بين القراءة والكتابة حتى مــع الأطفال ، الذين يبدأون أولى خطوات القراءة والكتابة، متصورين أن هناك انفصالاً بين عملية القراءة والكتابة وعملية المعرفة عند الإنسان بشكل عام . وهذا الفــصل بــين القراءة والكتابة يلازمنا إلى الأبد طلاباً ومعلمين لأنه أصبح عادة تعليمية ، ولقد سمعت تعليقاً يؤيد ذلك من أحد الطلاب المتخرجين فى الجامعة يقول : " إننى لأجد صــعوبة هائلة فى كتابة أوراقى ، إننى لا أستطيع الكتابة " . وهذا التعليق أسمعه مــن طــلاب الجامعة كثيراً وبخاصة إننى أعمل أستاذاً جامعياً وثيق الصلة بطلابه، ولقد عكس هــذا الأمر – بكل تأكيد – الحقيقة المحزنة .

ومن الضرورى أن نأخذ فى الاعتبار الامتلاك النقدى لتكوين ذواتنـا ، والـذى يتشكل اجتماعيًّا ، بالتدريج مع الزمن ، ليكون قوة ناشطة واعية تتكلم وتقرأ وتكتب، وأن هذه السمات فى جوهرها إنما تحدث بفعل التشكيل الاجتماعى . وبعبارة أخرى، علينا أن ندرك أننا لسنا موجودين فحسب ، بل علينا أن نقتنع فى أنفسنا بأننا كائنات " مبرمجة للتعلم " كما عبر عن ذلك (فرانسوا جيكوب) . ومن ثم علينا أن نتعلم كيف نتعلم ، وهذا يعنى أيضاً أن ندرك من بين ما ندركه ، أن كلاً من اللغة الشفاهية واللغة الكتابية متساويتان فى أهميتهما الموضوعية .

ويقتضى الأمر أن يسعى أولئك الذين يَدْرِسون وأولئك الذين يعلمون ويَدْرِسون ألا يقتصروا على قراءة النصوص ، بل عليهم أن يتتبعوا قراءهما بتـدوين ملاحظـات ومذكرات ، وتقارير عن الكتب المقروءة ، وأن يؤلفوا بعض النصوص حول ما قرأوه . وعلينا جميعاً أن نقرأ كتابات المؤلفين والروائيين والشعراء والعلماء والفلاسفة المتميزين ممن يجهدون أنفسهم فى توظيف لغتهم بحثاً عن الجمال والبساطة والوضوح .

ولو أن مدارسنا قد تفرغت منذ الصفوف الأولى للتلاميذ إلى تغذيتهم دون القراءة والكتابة ، وإلى استمرار تلك التغذية خلال مراحل التعليم المختلفة ، فمن المحتمـل إلى حد كبير ألا نجد من بين خريجى الجامعة من نتحدث عن عجزهم عن الكتابة ، أو عدم ثقتهم وطمأنينتهم فى ممارستها .

ولو أن الدراسة لم تكن عبئاً علينا فى معظم الأحوال ، ولو أن القـراءة لم تكـن واجباً مر المذاق ، ثم لو أنه على النقيض من ذلك غدت الدراسة والقـراءة مـصادر للمتعة والسعادة ، فضلاً عن كونها مصادر للمعرفة التى تحتاجها للتحرك أماماً فى هـذا العالم ، لو أن هذا كان حادثاً فى مدارسنا ، لاستطعنا تحقيق مؤشرات أكثر دلالة على نوعية تعليمنا .

إن هذا جهد ينبغى أن يبدأ به فى المدرسة الثانوية ، وأن يُعنى بتعميقـه فى تنميـة القرائية ، وأن يتواصل دوماً دون انقطاع .

ولعله لا يمكن إنكار الأهمية البالغة لقراءة كتابات جان بياجيـــه ، ومنتـــسورى وإريكسون وغيرهم من المعذبين بنمو الطفولة ، إلى جانب كتابات المتخصصين الذين يعالجون قضايا العمليات القرائية ذاتها .

وإذا ما فكرنا فى العلاقة الحميمة بين القراءة والكتابة والتفكير وفى حاجتنـــا إلى خبرة عميقة بهذه العلاقة ، فيبدو لى أن اقتراحى بأن نخصص ثلاث فتـــرات أســـبوعيًّا نتفرغ فيها لكتابة موضوع ما اقتراحاً مقبولاً . وقد تكون هذه الكتابة من نوع تدوين مذكرات حول كتاب قرأناه ، أو تعليقاً على ما سمعناه أو شاهدنا فى وسائل الإعلام ، أو رسالة لشخص لا نعرفه جيداً . أو أى شيء آخر ، فالمهم ألا ننقطع عـــن ممارســـة الكتابة ولعله يكون مفيداً أن ندون تاريخ هذه الكتابات ونحتفظ بها ؛ لكى نعود إليها بعد أشهر قليلة لتحليلها بصورة نقدية .

لا أحد يستطيع أن يكتب إذا لم يمارس الكتابة مطلقاً ، كما لا يستطيع أن يسبح أى شخص إذا لم يمارس السباحة .

وإذا كنت قد ركزت على قيمة ممارسة الكتابة ، ومعها القراءة بطبيعة الحـــال ، لارتباطها بالتنمية المادية فى المجتمع ، فأود أن أؤكد أن هذا التركيز ليس صادراً عـــن موقف مثالى . والواقع إننى حين أرفض أى تفسير ميكانيكى للتاريخ ، فإنى أرفض أن أقدم تفسيراً مثاليًّا له .

فالتفسير الأول يختزل الوعى على أنه نسخة أو انعكاس للتشكيلات والبنى المادية للمجتمع ، أما التفسير الثانى فإنه يخضع كل مجريات الحياة إلى وعى قوى طاغ . ولكن موقفى مغاير لهذا وذاك ؛ إذ إننى أدرك أن العلاقة بين الوعى والعالم هى علاقة جدلية .

وليس من الملائم لنا أن ننتظر التحول المادى فى المجتمع، قبل أن نشرع فى مواجهة مشكلة القراءة والكتابة بصورة صحيحة . إن القراءة الناقدة للنصوص وقراءة العالم إنما تهتم بالتغيرات الجارية فى داخل كل منهما .